من صحائف الفردوس العربي المفقود

موسى بن أبي الغسان

بقلم : عبد الرزاق المختار
مدير الثانوية الجعفرية ببغداد

أرأيتم وميض البرق في الليلة الداجية المظلمة كيف ينير الأرجاء كلمح البصر أو هو أسرع ثم يعود فيضمحل كما بدا فيسود الظلام ويدوي الرعد ؟

وهل شاهدتم وانتم سائرون في بيداء قاحلة موحشة لا أنيس فيها ولا حسيس إبتداء طلوع الفجر واصطباغ السماء بالألوان الزاهية الزاهرة وانعكاس أشعة الشمس المنيرة على الأفق الممتد وبروز الغزالة من خدرها تتهادى وئيداً فتطرد بأشعتها النيرة جيوش الظلام المخيمة فيمتلئ الجو بهجة والكون حبوراً ثم لا تلبث أن تهب عاصفة هوجاء تثير الرمال فتملأ الجو عثيراً قاتماً يحجب تلك الأنوار يتبعها رعد قاصف وسيل جارف لا يبقي ولا يذر ؟

أسمعتم انغام الموسيقي العذبة بين الرياض والمروج والحور العين وبين خرير الجداول وصفير العنادل وزقزقة العصافير وانتم في ذلك النعيم واذا بطيور جوارح تنقض من السماء على الطيور المغرده الآمنة فتبدل امنها خوفاً وصفوها كدراً . ووحوش برية تعلو اصواتها فلا تسمعون لموسيقاكم صوتاً . ويعلو هنا وهناك صراخ وبكاء وعويل يفت الصخر ويذيب الجلمد فينقلب بين طرفة عين وانتباهتها ذلك النعيم جحيماً ؟

هل بلغكم نبأ ثوران البراكين واهتزاز الأرض وزلزالها وطغيان البحار وتحريبها واندلاع النيران وتحريقها وانقضاض الصواعق وما إلى ذلك من الآفات التي تجعل الأرض عاليها سافلها وتدك الجبال وتخرب المدن وتقتل الآمنين وتشرد الناجين ؟

هذا ما حدث لعرب الأندلس لسكان الفردوس العربي المفقود كانوا برقاً ومضى وخبا فاتبعه ظلام ورعد . كانوا شمساً سطعت على العالم المظلم فأضاءت ارجاءه ثم حجبت نورها العواصف وداهمت أرضهم سيول جوارف اكتسحت معالم مدنيتهم بل مدنية العالم .

كانوا أنغاماً جميلة في سمع الدهر . خالدة خلود الزمن تملأ اسماع البشرية بأطيب الألحان وأشجى الأصوات فأخفت أصواتها وحوش بشرية لا يطربها غير أصوات الأنين وحشرجة المحتضرين . ولا يروقها إلا منظر الدماء .

كانت بلادهم جناناً عامرة آهلة فخربها بركان الأسبان وزلزال البربرية وطغيان القضب والهمجية .

كانوا بسمة طاهرة في فم الانسانية قلبتها الأيدي الطاغية بين عشية وضحاها دموعاً ودماء .

لم يقف العرب في فتوحهم عند حد . ففي مدة أقل من قرن واحد حاصروا القسطنطنية ممرهم الى اوربه . وفتحوا القفقاس . وتاخموا الصين بل توغلوا في ارجائها سلماً لا حرباً . وعبروا طرق الهند فافتتحوها .

وفي المغرب الأقصى بعد أن تملكوا شمال افريقية ووطئوا بأقدامهم مياه الأطلس . عبر نفر الى العدوة الثانية من البر الغربي . إلى الاندلس . ولولا انتباهة أوربا ولولا تلك الصحوة التي صحاها شارل مارتل لكانت كلمة الله اكبر يرن صداها في عواصم الغرب اليوم .

ولكل جواد كبوة . وبعد كل يقظة غفوة . وعقب الهدوء عواصف .

ظهر التأريخ والتطاحن . واستعرت نيران الفتن والمكائد

وتداخلت في الشؤون الداخلية الايادي الاجنبية وأخذ الابن يطمع في ملك أبيه والأخ ينازع أخاه. فانفصلت الاندلس عن المملكة العربية الاسلامية واستقلت ثم تجزأت الى طوائف وإمارات وولايات تنازع الواحدة الثانية وتعتدي هذه على تلك. انفرط عقد الوحدة. وانحلت روابط العصبية. وتسرب الوهن ودب اليأس. ومالت الشمس الى مغيبها.

وفي زوايا الأندلس عشعشت عناكب الفرنجة فحاكت خيوط الدس والكيد. وألفت شباك القنص والصيد ومدت اذرعها الملتوية تبتلع مدينة بعد أخرى وتستولي على حصن بعد آخر عنوة او صلحاً بعد وعود وعهود وكتابات ومعاهدات لا يكاد يجف مدادها حتى تخترع أساليب لا تعرفها إلا عقول أصحابها لنقضها وعدم الوفاء بما ورد فيها.

كان آخر معقل قد بقي بيد العرب غرناطة وآخر دولة أو بالأحرى دويلة هي دولة بني الأحمر في غرناطة. وعلى رأس تلك الدولة شاب لم يجرب الأمور ولم يعركه الدهر. ولم تحنكه التجارب. هو أبو عبدالله آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك غرناطة وآخر ملوك الاندلس.

ازدحمت غرناطة باللاجئين إليها من الأطراف نساءاً ورجالا وأطفالا. هربت تلك الجيوش الجرارة مؤلفة من أناس يمثلون البؤس أو هم البؤس بعينه الى آخر معقل لهم يقيهم عادية جيوش الأسبان تحت راية فرديناند التي كانت لا تفرق بين الخصم والحليف والعدو والصديق امتلأت ازقة المدينة وشوارعها ودورها بالاف من البشر قد اضناهم الجوع واضر بهم النصب وفتك بهم العناء.

ثم حوصرت تلك المدينة. وظهرت رايات فرديناند الخامس ترفرف على الآفاق. فدعا أبو عبدالله رجال مملكته. وكبار دولته يستشيرهم ويأخذ آراءهم. والتأم المجلس في قاعة القصر والأعضاء بين باك منتحب ودامع العين ومتأوه. هذا يبسمل وذاك يحوقل وآخر يسترجع

تفوس هدها اليأس وأخذ منها الخوف وسلبها الجزع واستولى عليها الهلع.

تطلع أبو عبدالله الى الأبصار المحدقة به والى الاشباح المحيطة بعرشه فخنقته العبرة وسالت الدموع على خديه المجعدين قبل الأوان. ولم يفه إلا بقوله:

— لقد عرض الطاغية علينا التسليم.

سكت الكل. وخيم الصمت. ومن بعده علا النحيب والنشيج. وسرت العدوى الى رئيس المجلس. الى أبي عبدالله فصار:

يبكي مثل النساء ملكا مضاعاً لم يحافظ عليه مثل الرجال

دوى في ذلك المجلس الباكي المنتحب الحزين صوت رددته الأبهاء والأروقة. صوت كفكف الحاضرون دموعهم لرؤية صاحبه. صوت كان كماء بارد نقع غلة ظمآن في حمارة القيظ في بيداء محرقة تطلعت العيون خلال الدموع الى المتكلم. كان جميل الصورة. ظريفاً في ملبسه وهندامه وحديثه ورقة صوته. مؤثراً في إسلوبه تطل الشجاعة من آماقه. عرفوا في المتكلم موسى بن أبي الغزن الذي نقم من أبي عبدالله خضوعه واستسلامه لفرديناند. علموا أنه هو الذي كان يذكي الروح الحربي في غرناطة باقامة المباريات والمناورات. وقيادة السرايا الى أراضي العدو ومفاجأة حامياته وقلاعه. عرف الحاضرون موسى معبود النساء رب الطعان. فارس الميدان ظل صوته يدوي:

— ليعلم ملك الفرنجة. أن العربي قد ولد للجواد والرمح فاذا طمح الى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية. اما أنا فخيرلي قبر تحت انقاض غرناطة. في المكان الذي أموت مدافعاً عنه من افخم قصور تغنمها بالخضوع لأعداء الدين.

ضج الحاضرون حماسة. وسرى ذلك الى الشعب فجردت السيوف من أغمادها. وأرسل الملك جوابه الى فرديناند: انه يرفض التسليم.

تولى موسى قيادة الفرسان الذين دربهم. وسار أمامهم يقتحم الصفوف وينكس الرايات. ويضرج الأرض

يلون أحمر .

وشدد فرديناند الحصار وقطع المؤنة والمدد عن المدينة وضاقت الأرض على أهلها بما رحبت وبلغت القلوب الحناجر. فانعقد المجلس الملكي ثانية كي يستمع الى تقرير حاكم المدينة . كانت اصوات النساء وعويل الأطفال وانين الجرحى تصم الآذان خارج المجلس .

قدر الحاكم ان المؤن الباقية لا تكفي إلا لبضعة ايام . وان اليأس قد دب الى قلوب الجند والعامة وان الدفاع عبث لا يجدي فهو يرى التسليم اجدى .

وانبرى إبن ابي الغزن كعادته صائحاً :

— ان الدفاع ممكن وواجب . لم يبق لنا إلا الأرض التي نقف عليها فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن .

وتشدد الأسبان في الحصار والتكير . وضاعف المحاصرون الجهود . ولكن اليأس والجوع وخيبة الآمال لم تبق في نفوس الجميع مجالا للصبر .

عقد المجلس مرة أخرى واعلن الحاكم : ان حالة المدينة تعيسة . وقد نضبت المؤنة وعمت الفاقة . وصرح المجتمعون ان الشعب لا يقوى بعد على تحمل مصائب الدفاع وان ليس لهم إلا التسليم أو الموت .

وانفرد موسي عن الجميع قائلا :

— لم يحن الوقت بعد للكلام عن التسليم . فلم تنضب كل مواردنا . بل ما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات . ذلك هو يأسنا فلنعمل على إثارة الشعب . ولنضع السلاح في يده ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة . وانه لخير لي ان أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليما .

ولكن الحضور لم يؤثر فيهم ذلك الكلام شيئاً . كانت افئدتهم قد ملئت رعباً ويأساً . وقلوبهم قد أفعمت قنوطاً . واقتنع ابو عبدالله الملك بما أجمعوا رأيهم عليه وأرسل الحاكم يفاوض فرديناند في شروط الصلح . تلك الشروط التي كانت حسنة لولا ما أثبته التأريخ بعد ذلك من أنها لم تكن إلا شركا للظفر بغرناطة . وخديعة شائنة للتنكيل بعرب الأندلس . فلم يوف بأي شرط منها .

خرج الرسول للمفاوضة بين زفرات الباكين وشهيق الشاهقين إلا أن موسى لم ييأس ولم يتطرق والخضوع والخنوع الى قلب فهبه واقفاً :

— اتركوا أيها السادة العويل للنساء والأطفال . نحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ولكن لتقطر الدماء . واني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ الدولة . ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد . فلنمت دفاعا عن حريتنا . وانتقاما لمصائب غرناطة . وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من اغلال الفاتح وعسفه . ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فانه لن يعدم سماءاً تغطيه . وحاشا لله أن يتمال اشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها .

فلم يجبه أحد . ولم يلبه نفر . وصاح ابو عبد الله الملك مستعبراً :

— الله اكبر . لا إله إلا الله . محمد رسول الله . ولا راد لقضاء الله إنها إرادة الله ولتكن . تالله لقد كتب علي أن أكون شقياً وان يذهب الملك على يدي .

وردد الحاضرون :

— الله اكبر . ولا راد لقضاء الله . انها إرادة الله ولتكن .

ثم قدم الرسول يحمل صك التسليم فتهافتوا على توقيعه ولم يسع موسى الصبر على تلك الذلة فنهض غاضباً : —

— تخدعوا أنفسكم . ولا تظنوا أن فرديناند وأتباعه سيوفون بعهدهم ولا تركنوا إلى شهادة ملكهم . إن الموت اقل ما نخشى . فامامنا نهب مدينتنا وتدميرها . وتدنيس مساجدنا وخراب بيوتنا . وهتك نسائنا وبناتنا . وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشي والسياط والأغلال . وأمامنا السجون والاقطاع والمحارق هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف وهذا ما سوف تراه على الاقل هذه النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف أما أنا فوالله لن أراه .

وخرج يتخطى الرؤس ويطأ الناس . وامتطى جواده شاهراً سيفه الى العدو . الى النضال الاخير . الى الكفاح المميت

وقتل أكثر من سبعة ثم قتل جواده . وجرح هو جرحاً خطيراً فترجل وكسر سيفه فاستل خنجره وأخذ يطعن ذات اليمين وذات الشمال . واصطبغ وجهه بالدم . أصبح لا يرى الا الدم .

ثم رأى ان قواه قد خارت فلم يشأ أن يقع أسيراً في أيدي أعدائه فوثب إلى النهر وغطس . وكان سلاحه الثقيل خير معين له على دخول القبر الذي اختاره لنفسه شريفاً غير ملطخ بعار الخضوع والتسليم

ثم صبح ما توقعه لقومه وما تنبأ لهم به فنصبت المشانق وأقيمت المحارق وأجلى العرب عن البلاد وأجبروا على تغيير دينهم وزيهم وأحرقت كتبهم وديست كرامتهم وامتهنت حرماتهم .

وكان ما كان مما لست أذكره
فظن « شراً » ولا تسأل عن الخبر

بغداد — عبد الباري المختار

تعرف

تعرف بمن تهوى بشتى الوسائل — وان يك ناء عنك جد بالرسائل
وواصله تستجلب مودة قلبه — وتحظ بلاشك وريب بطائل
فألفتكم فيها نجاح نضالكم — وفرقتكم فيها نشوب الغوائل
تصفح اذا ماشئت تأريخ عصرنا — وتأريخ ابناء العصور الأوائل
وراجع كتاب الله واعمل بنهجه — فهاهو باق بيننا غير زائل
فهل امة ساد التفرق جمعها — ولم تتحد تستطيع حل المسائل
وهل امة كان الوءام حليفها — تعيش بها حتما سعاة الرذائل
فلا تك ممن يفتخر بنفوذه
اذا كنت من أهل النهى والفضائل
وتلك هداك الله نشر حقائق — ابثكها ان كنت عنها تسائل

الكوفة — علي البازي

عاطفة ولد

بقلم : الاستاذ محمد الخايلي

ابي الكريم : ما الذ هذه الكلمة في فمي واحلاها ، وما أعظم سروري حينما اسمعها من فم غيري ، على أن كلمة (اب) جد بسيطة وخفيفة النطق والحروف ، غير ان قلبي ليبتهج سروراً ويعلوه الفرح والابتهاج عند سماعها فيسلو كل غمومه وهمومه ، وينسى الفكر كل مكدرات الحياة عندما تحمل امواج الاثير هذين الحرفين وترسلها الى اذني المرهفة لاستماعها .

ابه : لا اغالي وايم الحق لو قلت : ان هذه الكلمة السماوية الروحية عندما تجري على فمي لأرى كان لذائذ العالم كلها قد جمعت وتجسمت فيها ثم اختصت لي وحدي دون غيري ، فتعتريني هزة الارتياح وتضطرب اعصابي اضطرابا يلذ لي فتهون علي شدائد الحياة وصعوباتها .

أنا لم اعلم ولم استطع ان اعلم ما هي هذه الجاذبية في كلمة (اب) وما هو السر المودع فيها ، غير اني احس بمجرد سماعي لها ان حالة غريبة قد عرضت لي فأورثتني قوة ارادة ونشاط مجهولة المصدر ، اللهم الا تلك الكلمة الصغيرة الموجبة لقوة القلب والسالبة لضعف البدن .

ابه : على ذلك الحنان الأبوي الذي تبديه نحوي وعلى تلك اللذة التي تجدها انت بوجودي امامك ، فان لك في قلبي عظمة وجلالا يمنعاني من أن ارفع طرفي ناظراً اليك ، وهيبة تجعلني مسلوب الارادة عند ارادتك وعزمك .

ابه : إني لأحبك حباً دونه العبادة ، اذ لم ازل اقف قبالة هيكلك المقدس محرماً بثوب ابيض قد حيك من